الزلازل في سوريّة

بيان نواميسها وسيرها

للاب هنري لامنس اليسوعي

انَّ بلادنا هذه مع ما خُصَّت به من المحاسن والصفات كثيرًا ما ابتلاها الله بداهية دهياء تنغّص عيش سكّانها ألا وهي الزلازل التي من حين الى آخر تزعزع الارض الى اعماقها وتخلف بعد اجتيازها آثار العيث والخراب. فاذا ما قرأنا في كتب المؤرّخين وصف بعض هذه الزلازل ارتعدت منّا الفرائص وارتبكت القلوب واقشعرّت الابدان ووددنا لو نعرف لهذا الداء دواء او على الاقلّ لو نقف على نواميس الزلازل وخطّة سيرها تلافيًا لبعض مضارّها

هذا ونأسف على انَّ اكثر المؤرخين في اوصافهم المُسهبة لم يُراعوا ما يقتضيه العلم من التحقيق والبحث المدقّق فاستغنوا عن ذلك بتفصيل ما يقع من الامور الغريبة في ابّان حدوث الزلازل. ولكن رغمًا عن تقصيرهم من هذا القبيل يسعنا ان نستند الى رواياتهم ونستخلص ممّا احصوهُ من الزلازل العديدة (ولا ريب انهم ضربوا الصفح عن كثير منها) بعضَ نتائج ونواميس عامّة تفيدنا بالخصوص ما هي الخُطّة الّتي تتّبعها هذه الزلازل في مسيرها واي مدن الشام هي عرضة لتكبّاتها. وقد آثرنا في اختيار موادّنا نَقْل ما رواهُ الكَتَبة الشرقيّون على غيرهم وهم ادرى ممّا سواهم باخبار بلادهم

١

انَّ قسم الثغور الشاميّة التي تصيبهُ الزلازل يمكن تعيينهُ بخطّين يتوازيان مدّة ثمّ يجتمعان عند حلب على شكل زاوية محدّدة. فيبدأ الخطّ الاوّل عند مجرى دبلة السفلي بقرب ديار بكر ثم يمرُّ بالرها (اورفة) (١ ومَنبج وحلب وانطاكية فاذا وصل اليها مال تارًا الى الجنوب فمرّ بساحل البحر وانتهى الى عسقلان وغزّة

والى هذا الخطّ المذكور مرجع ما رواهُ اصحاب الآثار عن عدّة زلازل حدثت في الشرق الادنى وفي البلاد المجاورة لبحر المتوسط في السنين الآتية للمسيح: ١٣١, ٣٦٠

---

١) راجع تواريخ الصليبيين (Hist. Orient. des Croisades I, 295 ; III, 551, 607) — وتاريخ تاوفان (Théophane 860)

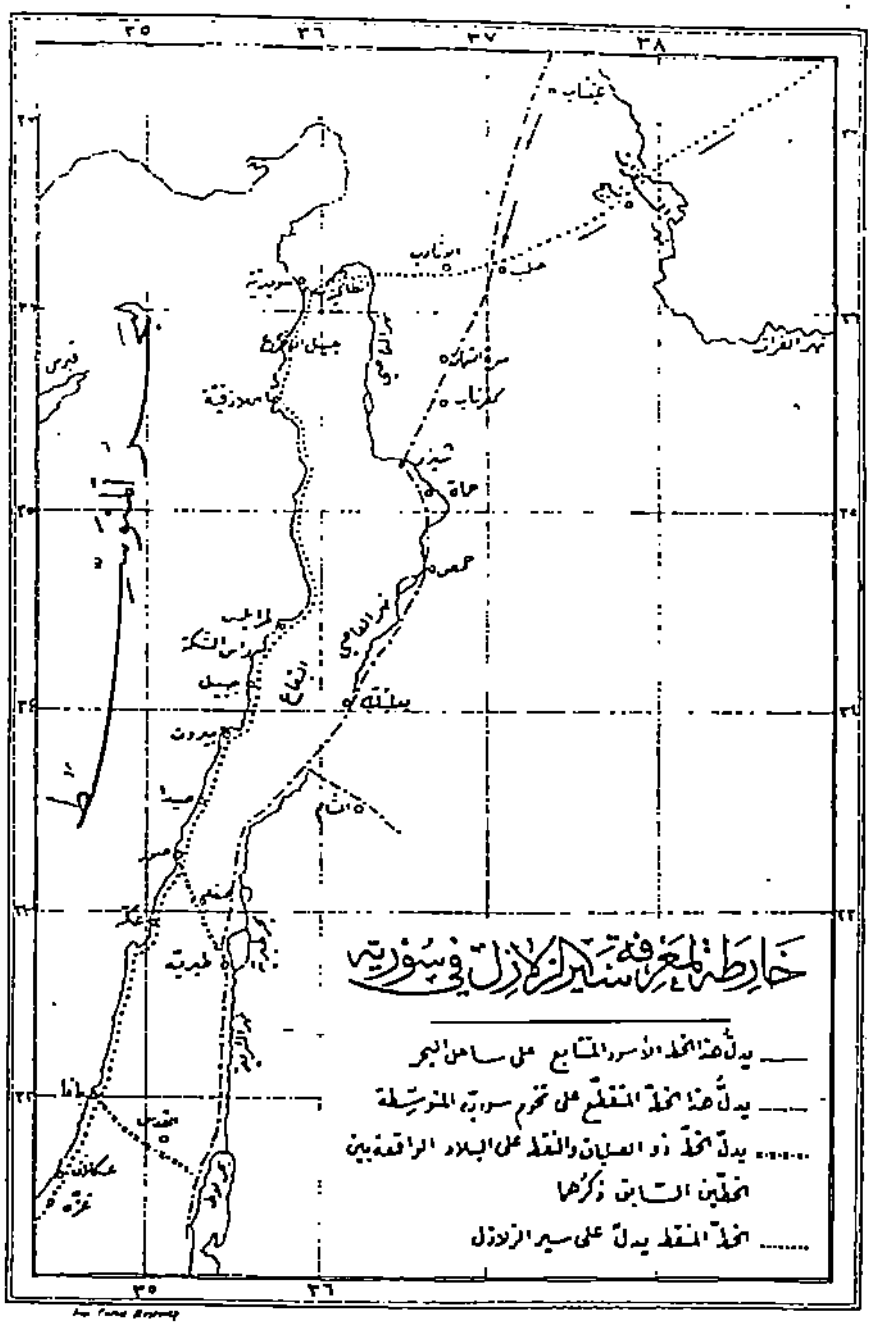
خارطة لمعرفة سير الزلازل في سورية
يدل هذا الخط الأسود المتابع على ساحل البحر
يدل هذا الخط المتقطع على تخوم سورية المتوسطة
يدل خط ذو الصيان والنقط على البلاد الواقعة بين الخطين السابق ذكرهما
يدل النقط على سير الزلزال
٣٥
٣٦
٣٧
٣٨
٣٤
٣٣
٣٢
٣١
٣٠
٢٩
٢٨
٢٧
٢٦
٢٥
٢٤
٢٣
٢٢
٢١
٢٠
انطاكية
حلب
منبج
حماة
حمص
بعلبك
بيروت
طرابلس
عكا
طبرية
غزة
بحيرة طبرية
نهر الفرات

٣٣٣, ٣٤٠, ٣٨٧, ٤٥٨, ٤٤٤, ٥٢١, ٥٤٣, ٥٦٠, ٥٨٠, ٥٨٩, ٧١٣, ٧٧٥, ٨٥٣
٨٥٩, ١٠١٦, ١٠٣٣, ١٠٦٣, ١٠٦٩, ١١٠٩, ١١٢٩, ١١٥٥, ١٢٠٤, ١٢١٢, ١٣٣٩
١٤٠٢, ١٥٤٦, ١٦٥٦, ١٧٨٣, ١٧٩٦, ١٨٢٢, ١٨٥٩, ١٨٧٢, ١٨٧٣

وربَّما ظهرت علامات الزلازل في مياه البحر فقد اخبر سترابون الجغرافيّ في اثناء ما ذكرهُ عن المعركة التي جرت في سنة ١٤٣ قبل المسيح بين اهل عكّة والقائد سرپيدون انَّهُ لمَّا انتهى الامر وركن جنود سرپيدون الى الفرار جاشت مياهُ البحر بين عكّة وصور وتصاعدت كما يحدث عند المدّ واغرقت من فرَّ هاربًا. ولمَّا جَزَرَ البحرُ وُجدت جثثهم على سيف البحر مختلطةً بالاسماك الميتة. وذلك دليلٌ على انَّ ساحل فينيقية طرأت عليه في تلك السنة طوارئ غريبة مُخجفة. ولا شكَّ ان هذا الحادث جرى في سواحلنا غير مرَّة قبل ذلك العهد كما تكرَّر بعده عدَّة دفعات

ولم يَفُت كتبة الاسفار الالهيَّة ذكر الزلازل بيد انَّ التوراة اشارت اليها وألمت فقط إلمامًا. ولا نعلم ما كان من الأثر للزلزلة التي وقعت في ساعة موت المسيح (متَّى ٢٧: ٥١) وهل احسَّ بها اهل فينيقية

ومن اشهر الزلازل التي ورد ذكرها في التاريخ رطَّت لها مسامع الاجيال هزَّةُ الارض في ايام يوستينيان الاوَّل في سنة ٥٤٣ وآثارها المرهبة الباقية حتَّى يومنا هذا تنبئنا عن ضرباتها الوبيلة حتى انَّها غيَّرت في بعض الاماكن هيئة الساحل. وذكر المؤرخ تاوفان في حوادث السنة الآنف ذكرها انَّ رأس شكَّة الذي موقعهُ بين البترون وطرابلس زُجَّ في البحر وصار في مكانهِ خَورٌ واسع ولم تعد الطريق المارَّة في شمالي هذا الرأس مسلوكةً وصار الساحل على هيئة صخور منتصبة عموديًّا تعلو سطح البحر

ولا غرو انَّ حادثًا شبيهًا بالسابق أثَّر في صورة شواطئ فينيقيـة جمعاء فانخسفت الارض في عدَّة امكنة وساخت خصوصًا في قيسارية وصور وصيداء وبيروت وجبيل والبترون. ولعلَّ ذلك هو السبب الذي يحول دون العلماء فيصدُّهم عن تعيين مدقَّق لموقع صور وصيداء قديمًا. وقد نالها من صدمات الزلازل ما لم ينلهُ غيرهما. وفي كلّ هذه المدن ترى عند ركود البحر مآثر جليلة وبنايا عظيمة قد غطَّتها المياه منذ قرون عديدة. ولك ان تشاهد عند مصبّ نهر الكلب آثار مقالع قديمة يتغيرها اليوم مياه البحر

وكانت بداءة الاهتزاز في سنة ٥١٣ كما في غالب الاوقات من بلاد بين النهرين ووُجهتهُ حلبُ وانطاكية منتقلًا منهما الى ساحل فينيقية حيثُ خربت من جرَّاءِ جُبيل وبيروت وصيدا. وصور

وكانت اذا ذاك الدائرة على بيروت اكثر منها على بقيَّة المدن. فبقيت اجيالًا طويلة يسود عليها الخراب الَّا انها نهضت من حالتها هذه وعادت الى ما كانت عليهِ من العمران بينما لا تزال بعدُ قريناتُها في الذلّ والخمول. وقد زارها انطونين المعروف بالشهيد بضعة سنين عقيب هذا المصاب العظيم فلم يجد فيها غير آثار الخراب والدمار وسمع من فم اسقف بيروت ما تزل بهذه المدينة من النوازل بعد ان كانت «من حواضر البلاد زاهية بالعلوم والآداب» (راجع تاريخ رحلتهِ ص ٣٠١)

وفي سنة ٨٥٣ حلّت بالسواحل الشاميَّة قوارع أُخرى. قال ابو الفرج في تاريخ الدول (ص ٢٤٨): «وفي هذه السنة كانت زلازل هائلة... بالشام وفارس وخراسان وباليمن مع خسف. وتقطَّع الجبل الاقرع وسقط في البحر فمات اهل اللاذقيَّة من تلك المدّة»

وقد اكتفى ابو الفداء بقولهِ عن زلزلة سنة ١٢٠٢ (٦٠٠ هـ) «انها عمَّت مصر والشام والجزيرة... وخربت مدينة صور». وذكر قبلهُ ابن الاثير في تاريخ زلزلة سنة ١٠١٦ (٤٠٧ هـ) انَّهُ وقعت التبَّة الكبيرة على الصخرة بالبيت المقدس. وروى في تاريخ سنة ١٠٣٣ (٤٢٣ هـ) انَّ زلزلة اخرى حلَّت في بيت المقدس وخربت ثلثًا من مدينة الرملة بين اورشليم والقدس وقتلت جمًّا غفيرًا (١

ومع كثرة ما حدث من الزلازل في هذا الخطّ الاوَّل لم يروِ المؤرّخون عن بواقيها الَّا شيئًا نزرًا

٢

وليس الامر كذلك بخصوص الخطّ الثاني الذي يسوغ بان ندعوهُ خطّ سوريَّة الشرقي ومبدأ هذا الخطّ في شمال سوريَّة عند عَيْنتاب منحدرًا انحدارًا مستقيمًا نحو الجنوب ويقطع عند حلب الخطّ الاوَّل ثم يجتاز في قلب الثغور الشاميَّة سائرًا في وسط وادي العاصي ووهاد بلاد البقاع الى غور الاردن. ومن كان لهُ ادنى إلمام بعلم الجيولوجية

١) وجاء ذكر هذه الزلزلة في كتابة على جامع المدينة لكنَّهُ قيل فيها انَّهُ لم يقتل احد

يلاحظ في طول هذا السير آثارًا بركانيّة قديمة كالرماد التي تقذفها النيران من قلب الارض والحجارة النارية وخبث المعادن وينابيع المياه الحارّة الكبريتيّة. واكثر ما يُرى ذلك في وادي الاردنّ وغور بحر لوط حيث التقاليد القديمة تشهد بصوت واحد مع اخبار الكتاب الكريم انّ ثمّة حدثت في سالف الازمنة انقلابات هائلة بعثرت اركان الارض وطمست محاسنها. نعم انّ فوّهات البراكين قد خمدت الآن ولم تقذف منذ امد طويل برمادها الملتهبة لكنّ الزلازل لا تزال حتّى اليوم تنطق بلسان حالها عمّا يتضمّنهُ بطن الارض من النيران المتأجّجة

وفي هذا الخطّ الثاني حلّت زلازل كثيرة نخصّ منها بالذكر التي وقعت في السنين الآتية : ٧٣٨, ٧٤٦, ٩٩٢, ١١١٤, ١١٣٨, ١١٥٧, ١١٧٠, ١٣٠٢, ١٣٠٧, ١٦٥٩, ١٦٦٦, ١٧٥٩, ١٨٣٧, ١٨٥٤

واوّل زلزال وقفنا على وصفهِ في قدماء المؤرخين حدث في سنة ٧٣٨. قال تاوفان المؤرخ (ص ٨٥٢) : انّ حلولهُ كان في وادي الاردنّ وفي البرّيّة الواقعة بين القدس وبحر لوط فدُمّرت لذلك اكثر اديرة تلك الانحاء.

وفي سنة ١١١٤ حلّت هذه النكبة النكباء في شمالي سوريّة فاصابت مرعش وعزاز وما جاورها من البلدان واستثنت بخلاف العادة مدينتَي حلب وانطاكية (١

وكان لزلزلة سنة ١١٧٠ (٥٦٧ ﻫ) وقعٌ سيّئ في انحاء المشرق. قال ابن الاثير في تاريخ هذه السنة : لم يرَ الناس مثلها وعمّت اكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد واشدّها كان بالشام فخرب كثيرٌ من دمشق وبعلبكّ وحمص وحماة وشيزر وباورين(٢ وحلب وغيرها وتهدّمت اسوارها وقلاعها وسقطت الدور على اهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحدّ والاحصاء وخأرها من اهلها. . . فاتى السلطان نور الدين مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فانّها كانت قد اتت عليها وبلغ الرعب ممّن نجا كلّ مبلغ فكانوا لا يقدرون يأوون الى مساكنهم خوفًا من الزلزلة (اه) (٣

(ستأتي البقية)

---

١) راجع مجموع مؤرخي الصليبيين الشرقيّين الجزء الاول ص ٢٩٥ والجزء الثالث ص ٥٥١ و٦٠٧ ٢) ويُروى « بَعْرين » والصواب كما رويناه. قال ياقوت في معجم البلدان : والعامّة تلفظ بَشْرين ٣) راجع ايضًا ما رواهُ ابو الفداء في تاريخ السنة ذاتها